سلطة المثاقفة في الرواية الجزائرية ودورها في توطيد أواصر الإبداع المغاربي نماذج روائية

د/ليلى جودي
جامعة الجزائر2

لقد اعتنى الفكر العربي بالرواية المغاربية وسيرورتها اهتماما منقطع النظير، ومردّ هذا يرجع إلى ما تملكه الرواية عامة من قوة تأثيرية، وإلى مرجعيتها التأريخية والعلمية، فضلا عمّا تسعى إليه من خلال إرساء منظور حضاري على أرض الواقع، متجاوزة بذلك حصر الإبداع والفكر في نطاق ضيق، قد لا يتجاوز حدود "حبر على ورق"، وإنّما تعدّته إلى فضاء أرحب، بالنّظر إلى شساعة ما يستقيه المبدع من الوجود، ثم يحياه الجميع عن طريق الاطلاع عليه، والإحساس به، والانتفاع منه بنسب متفاوتة، فيؤكد حضارة المثاقفة. «ويدلّنا تاريخ الحضارات على أنّها [النّهضة في تاريخ الإنسانية] تيار حضاري عام متواصل التدفّق، دائم التنّقل من بلد إلى بلد، وهو في العصر الحاضر، عصر الاتصال الوثيق بين مختلف الأمم، ينتشر ويكاد يعمّ بلاد الأرض، ويزداد تقدّمه يوما بعد يوم، بفضل استفادة الأمم بعضها من مبتدعات بعض». [1] وبخاصة وأن الرواية بصورة عامة حقّقت تحولا كبيرا على مستوى اللّغة والخطاب، ضمن إمكاناتها الجمالية والخطابية التي ميّزتها، ولكن ليس بعيدا عن المنحى التاريخي والإيديولوجي. وهذا بالنظر إلى أنّ الشعوب جميعها لا يمكنها أن تلتقي وتلقي بظلالها التواصلية، وتحدث علاقات فكرية وروحية ونفسية وعقائدية، تتفاعل بها ومعها، من دون تقارب علمي وفني وأدبي وثقافي وديني... داخل حدود بلدها وخارجه، فتقوّي التعالق الفكري والتلاحم المعرفي بكل أبعاده. وإنّ تم تحقيقها بأشكال تنوّعت في المنطلق والأساليب؛ فإنّها تفضي إلى النتيجة الحتمية وهي تجسيد سلطة المثاقفة التي بها يكون الرقي

الحضاري، بل إنّ الشّعوب يصعب عليها، بل يستحيل، أن تتواصل وتتحاور من دون أدب إبداعي راق وبنّاء، يسعى إلى ترسيخ جملة من المقومات الحضارية في العقول، التي بها يتم تقويم الخلل، وترميم الشروخ البيّنة، ورفع أسدال التعصب والانغلاق الذي ران على قلوب البعض.

لطالما قيل إن الأدب رسالة، تسهم مع سواها من الوسائل والآليات في تكوين إنسان يفهم من يتعايش معه فهما صحيحا، ويقيّم ويقوّم نفسه ومن حوله بتواصله معه بشيء من الوضوح واللين حتى يمتثل ويخضع، وبناء عليه ينجز الأدب ــ بوصفه رسالة ــ المهمة التي أسندت إليه، وبوصف مبدعها لم يشق مجالها للتنفيس عن مكنونات نفسه، فكان عمله بحق نتاج رؤية عميقة وفاحصة لأوضاع رآها، ومواقف خبرها، أراد من ورائها أن يذيب حاجز الجليد الذي يفصل بينه وبين من ينتمي إليهم، فيشاركونه إنتاجه الفكري الإبداعي، ذي الحركية الاتصالية المتجدّدة والمستمرة التي تربط بين القديم والجديد، بحرارة هي أقرب إلى الصواب والحقيقة النسبية، كل هذا يسهم في خلق جو من الجرأة والوعي بواقعه ومن حوله؛ إذ «ليس التجدّد آلة نهدم بها ما بناه أسلافنا، ولكنّه قوة غير متناهية نرمّم بها الماضي ونمهّد بها المستقبل...».[2]

إنّه من الضرورة بمكان أن نؤكّد أهمية الاستفادة من الآخر في بعض الأشياء، وعدم قبول الوارد من الآخر، من الألف إلى الياء، إذ المفارقة بين الأولى والثانية واضحة جليّة؛ ذلك أن «كل نهضة حضارية لا تنمو، وتصل بخطوات حثيثة إلى مرحلة متقدّمة من الازدهار، إلاّ بتأثير نهضة خارجية تهبّ عليها نسماتها. والنّهضة الأدبية تخضع لهذه القاعدة بطبيعة الحال، فهي من أهمّ عناصر الحضارة، وتتوقّف سرعة تقدّمها على درجة استعدادها لتقبّل النّهضة الوافدة عليها، وللإفادة منها».[3]

ولئن كان كل قطر ومازال، وبخاصة بلدان المغرب العربي التي تحتل موقعا جغرافيا ممتازا، بحكم تقاربها، جسرا لتداخل الحضارات، ومجالا رحبا لتيارات فكرية خصبة، فإنّ الحضارة لا تقوم دون الأشخاص، كذلك المثاقفة، وتأسيسا عليه فقيمة القطر لا تنحصر في الزمان والمكان فقط، وإنّما في الإنسان بخاصة.

والحق أن عددا غير هيّن من المثقفين من أقطار المغرب العربي نادوا بجرأة ووعي إلى ضرورة تلاقح الآداب المختلفة، [4] من غير أن يؤخذوا بحضارة الآخر وينغمسوا فيها بالكلّية أو ينسلخوا من مبادئهم؛ وفي الوقت نفسه، فإنّ هذا لا يعني وضع الفكر والثقافة والأدب في أسر الحدود العربية والمغاربية على وجه التحديد؛ لأنّهم يدركون ما يفعلون؛ فهم على وعي بخطر هاته المهاترة التي قد تقضي على إبداعهم وفكرهم وتصوّرهم، فيأفل نجم تقدمهم وينأى عمّا يصبون إليه... ذلك أنّ الاحتفاظ بالفكرة الواحدة والتوجّه الواحد يتسبّب في أن تصاب الروح العربية بالصّدأ فالوهن، [5] لكنّ السؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو:

كيف تشكّل التعالق وتوحّد بين أقطار المغرب العربي من جانب الثقافة عامة والأدب على وجه التحديد خاصة في شقّه المتعلّق بالرّواية؟ وكيف كان تأثير الرّواية الجزائرية في الرّواية المغاربية وكيف كان تأثرها بها؟

لعلّ من أهم أساليب نشر الثقافات وتحقيق تكامل الشعوب وترسيخ أصوله في الجانب الأدبي، إمّا بشكل مباشر أو غير مباشر، التواصل بين وفود من العلماء والأطباء والمفكّرين والشّعراء والأدباء والفلاسفة ورجال الدّين والمترجمين والصحفيين... وغيرهم، عبر تبادل الرّحلات من أجل نشر العلوم والثقافات تحت إطار الأنشطة العلمية والتعليمية والدينية والفكرية والأدبية... كرحلات بعض الجزائريين إلى تونس والمغرب؛ كرحلة محي الدين باش تارزي، وعبد الحميد بن باديس، ورحلة الشيخ الطيب المهاجي... وغيرهم من

الجزائريين، ورحلة أبي شعيب الدكالي وعبد الحي الكتاني... وغيرهما من المغاربة إلى الجزائر، ورحلة الفاضل بن عاشور ومحمد الشاذلي النيفر من تونس إلى الجزائر..وغيرهم كثير؛ [6] أو عن طريق الوفود الصحفية، أو تبادل الكتابات، أو عن طريق طلب العلم والتوجه إلى مختلف البقاع والأصقاع والاتصال بالمراكز العلمية، ومن ثمّة إنشاء جمعيات علمية وأدبية خاصة بالمهاجرين، أو عن طريق التّجارة أو استغلال الثروات، وقد كانت حركة الترجمة المحور الأس للتعالق الفعلي بين شعوب بلدان المغرب العربي، أقلّها لسبر نوايا المستخرب الغاشم، ناهيك عن التطور العلمي الذي سهّل سبل المثاقفة.

إنّ هذه المثاقفة المغاربية، ذات النوايا الحسنة التي كانت تجمع بين بعض الدول بحكم القاسم المشترك في اللغة والتقاليد والدّين على وجه التحديد، أسهمت بشكل مباشر في إحياء الذّات وإثباتها، حيث كانت تنشد تفعيل المثاقفة الإيجابية التي تقود إلى التطور؛ لأنّها كانت مدركة لقيمة العرب وإبداعاتهم في مختلف الفنون. لقد بلغ ازدهار الأدب العربي أوجّه في الأيام الأخيرة من حكم الأمويين، عندما ارتفع مستوى الحياة الاجتماعية على إثر ما تحقّق من الازدهار المادي، والتقدم العلمي والصناعي، وبلغ أوج عصره الذهبي في العهد العباسي عندما بلغت النّهضة العربية الحضارية ذروتها، وقد انتقل ذلك التقدم العلمي والأدبي مع العرب إلى الأندلس، وواصل هناك خطواته إلى الأمام، وأسّس صرحا حضاريا شامخا ما زالت آثاره باقية ماثلة للعيان إلى الآن؛ ولا أدلّ على ذلك من كتابات بعض الروائيين المغاربة من تونس وليبيا والجزائر والمغرب وموريتانيا الذين كتبوا فأبدعوا مثل رواية «الغربة» و«الفريق» لعبد الله العروي، و«أحلام بقرة» لمحمد الهرادي، و«دليل العنفوان» لعبد القادر الشاوي، و«عين الفرس» و«خميل المضاجع» للميلودي شغموم، و«عرس بغل» و«اللاز» و«الحوات والقصر» للطاهر وطار، و«عشب الليل» و«التبر» لإبراهيم الكوني، و«الجازية والدراويش» لعبد الحميد

بن هدوقة، و«ذاكرة الجسد» و«فوضى الحواس» لأحلام مستغانمي، و«ما تبقى من سيرة لخضر حمروش» و«كتاب الأمير» لواسيني الأعرج، و«لعبة النسيان» لمحمد برادة و«الورم» و«البطاقة السحرية» لمحمد ساري و«الأسماء المتغيرة» و«القبر المجهول» لأحمد ولد عبد القادر و«ذاكرة الرمل» و«أشياء من عالم قديم» لمحمد ولد محمد سالم و...

لقد زاد الاحتكاك بين المغاربيين على اتساعه وشموله من تمتين أواصر الترابط بين المتواصلين بشكل إيجابي، كونه لم يحصر المثاقفة في حدود ضيّقة، ذلك أن الثقافة والأدب مفهومان فضفاضان؛ قابلان لاستيعاب عديد من الرؤى والمعارف والعلوم والمفاهيم والتصورات... لذلك يشكلّان عالما قائما بذاته. كما أن هذه المثاقفة حرّرت شعور بعض الشعوب، ونوّرت عقولهم، وهذّبت قيم الكثير منهم، وطوّرت شخصيتهم بدرجات متفاوتة في دنيا العلم والفكر والثقافة والأدب والفلسفة... وتأسيسا عليه وجب أن يتسامح الناس في كثير من الأمور، ليجعلوا من خصومهم المعارضين أنصارا وأعوانا رغم إرادتهم [7]. ومن هذا المنطلق نتساءل:

هل المثاقفة تولّد عن حسن استيعاب مدلول المشاركة والتواصل بأبعاده في ظل غياب المفارقات العقائدية واللغوية والعادات والتقاليد، وفي ظل توازن القوة بين بلدان المغرب العربي، وفي ظل أنّها جميعها عاشت وضعا استعماريا متزامنا؟ وما هي نتائج هذه المثاقفة؟

إنّ القيام بمحاولة بسيطة لاستقراء الفكر البشري وتاريخه الحافل عبر العصور، تجعلنا نؤكّد أنّنا اليوم نتوفّر على قدر كبير من الروائيين المغاربة الذين هم شعلة من الذكاء والهمّة والروح المتوثبة التي أقبلت على توطيد التعالق الإبداعي بحواس يقظة تسطّر من ورائها غدا متألّقا. نعم إنّهم سبّاحون مهرة في بحر الإبداع الروائي، غاصوا فيه وأخرجوا دررا وصدحوا بها، وهم يحتكون بأندادهم من الروائيين المبدعين الذين أسهموا في رسم

خارطة المثاقفة الإنسانية الجادّة فكرا وعلما وأدبا ودينا... لأنّهم يدركون أن غيابها عن الحياة الثقافية العربية والإسلامية هو الذي يؤدي إلى التشتيت الدائم والمستمر للآراء والأفكار، ويبقى كلا منها منغلقا على ذاته رافضا للآخر. ونحن نرى أن المثاقفة بين مختلف التيارات الثقافية العربية والإسلامية هو الكفيل بإنهاء المواقف الشاذّة، (في أي اتجاه كانت)، التي لا تنسجم ومصالح الأمة.[8] وكثيرة هي الأعمال الإبداعية الروائية التي لا ندّعي الاطلاع التام عليها، ولا نزعم الإلمام بكل تلك التي تناولت عنصر المثاقفة، وبدت فيها ملامحه بشكل أو بآخر، وحسبنا عذرا أن الروايات في هذا الاتجاه أو ذاك في توالد دائم وتنام مستمر؛ فالمبدع المغاربي دوما في عطاء فيّاض، ناهيك أن المغرب العربي أرجاؤه فسيحة وبحره ممتد في عالم الإبداع والفكر، ليس له شاطئ تحدّه المعالم؛ فهو بحر مضطرب حتى في الأجواء الصحوة، تتلاطم في خضمه الأفكار والمشاعر، والذي يحاول شقّ عبابه ويغوص فيه لاستخراج درره غالبا ما يتيه في أفقه المشرق.

لقد أثار الروائيون المغاربة قضية المثاقفة بصور متفاوتة ومتراوحة في الأهمية، بين من عرّج عليها بشكل غير مباشر وجزئي، وبين من صرّح بها بشكل مباشر وشامل. وتجدر الإشارة إلى أن البحث عن هذه القضية في الرّواية المغاربية، وتحديدا في الرواية الجزائرية، مغامرة شائكة وجريئة، ولكنّها ليست مستحيلة؛ ذلك أن إجراء مقاربة جادّة ومكثفة تحتّم علينا الاعتراف أن في تثاقف دول المغرب العربي عن طريق الرّواية خاصة اليد الطولى في بعث هذا الجنس الأدبي وتطوّره في جملة من الآليات التي يتمتع بها اليوم.

الحق أن الرّواية المغاربية أسهمت بشكل كبير في مدّ حبل المثاقفة بين أقطار المغرب العربي، ليس عن طريق المشاهدة والسماع والقراءة فحسب، بل عن طريق الممارسة خاصة، ونقل الأحداث بكل تفاصيلها بأسلوب فني شيّق "فالرّواية مرشّحة لكي تكون أكثر

الأجناس تعبيرا عن الإنسان العربي، بكل همومه المتباينة وطموحاته وآماله وآلامه ومشكلاته"[9]، ذلك أنّ المطّلع على رواية «الغربة» لعبد الله العروي سيرى أن صاحبها عمل على إبراز جملة من الثنائيات ذات الصّلة المباشرة بمسألة المثاقفة كثنائية الشرق والغرب* وثنائية الحاضر والماضي وثنائية الرجل والمرأة التي تلمع تقابلا حضاريا متفاوتا على جميع الصعد وبخاصة في شقّه الفكري القائم على تكوين الشخصية وبنائها متجليا في شخصية إدريس الروحية التي تؤمن بالكفاح واسترجاع السيادة الوطنية والحفاظ على مقومات الهوية المغربية وفي شخصية مارية المادية، الأمر الذي كسر أفق توقع إدريس وخيب ظنّه عندما ضربت بمبادئه الأصيلة عرض الحائط وعادت إلى أوروبا. لقد رسمت الرّواية صورة إدريس في صراعه مع الذّات والموضوع على حد سواء. ولئن بدت الشّخصية عاجزة عن تجاوز الواقع المرّ وانتهت علاقتها بالفشل فإنّها في المقابل حاولت وتمكّنت كغيرها من المغاربة في إعطاء صورة مشرّفة تؤكّد وعيها بالقضايا التي تخصّها في إطار علاقتها بالمستخرب.

وإذا جئنا مثلا إلى رواية «في الطفولة» لعبد المجيد بنجلون، فإنه يعقد مقارنة بين البيئة الانجليزية المتحضّرة ممثّلة في مانشستر والبيئة المغربية المتخلّفة ممثّلة في فاس على الصعيد الديني والأخلاقي والاجتماعي والثقافي، حيث حاول رصد التعالق الحضاري بين الشرق والغرب بناء على المعطيات الثقافية والمادية والعلمية والفنية والأدبية والتقنية، وهو في ذات الوقت قد أفصح من خلال إبداعه عن عدد من الثنائيات كثنائية الأنا والآخر، وثنائية التقدّم والتخلّف، وثنائية الانفتاح والانغلاق، وثنائية المادّة والرّوح، وثنائية القديم الموروث والجديد الوافد...

والأمر نفسه نجده لدى عمارة لخوص من خلال "كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك"، التي تسرد التاريخ بتقنية فنية استعارية رمزية، تروي أزمة الانتماء القومي داخل

الوطن وخارجه؛ فأمّا من داخل الوطن، فتحاول الرّواية أن تبرز موقف الجماعات المسلّحة من الشكل الخارجي للأشخاص كما تبرز تصرفاتهم وانتماءاتهم ومواقفهم ومستوياتهم الفكرية والعلمية والمادية... ويظهر هذا كلّه في اغتيال جماعة مسلّحة خطيبة أحمد سالمي الجزائري "بهجة" والتهديد بقتله.

وأمّا من خارج الوطن فتحاول أن تمس جرحا غائرا منذ سنين خلت يتعلّق بموقف الغرب من المهاجرين المسلمين والعرب، وقد تجلّى بوضوح في إيطاليا الذئبة* - أمّا المهاجرين المسلمين والعرب فأكثر ما تجلّى من خلال شخصية أحمد الذي غادر بلاده إلى روما إثر فقداه بهجة، وبسبب التهديدات التي وصلته بالقتل، فغيّر اسمه من أحمد إلى أمديو من أجل قبوله في المجتمع الآخر؛ وهو مع هذا "في مأمن من انفصام الشخصية" [10] لماذا؟ لأنّ الرّجل بكل بساطة عمل على تجنّب مأساتين: الموت قتلا عن طريق الإرهاب، والعيش ذليلا بسبب العنصرية القائمة على تحقيق المصلحة الذاتية.

إنّ الذئبة ستصير أمًّا، ولكن ليست حنونا ترتمي في حضنها كما يحلو لك وتجدها كلّما احتجتها أو استدعيتها، ستظل حيوانا مفترسا، وستظل عين الرضيع يقظة خاشية من الأضرار التي ستسببها على جميع الصعد، خاصة أن اسم إيطاليا ارتبط بالجماعات والمافيا، وهي الثنائية التي كانت سببا رئيسا في هجرته واغترابه، وهو السؤال الذي يطرح نفسه بقوة: لماذا الوجهة إلى إيطاليا والمصير الذي سيؤول إليه أحمد ذاته؟

أجيب فأقول: أن لا يعرف المرء متى يموت هو أجمل شعور يعيشه، أمّا أن يعرف متى يموت فهو الموت في كل لحظة قبل أن يحين أجله أو هو الموت لحظة معرفة الأجل. وهو ما صرّح به قائلا: «في كثير من الأحيان تكون عدم معرفة الحقيقة أفضل من معرفتها[11]». فضلا عن هذه الحقائق، فإنّ الظلم أبشع من الموت خاصة عندما يكون الظالم شخصا مقرّبا، وهو ما

أكدّه ابن العشرين طرفة بن العبد وهو لسان حال نفسه والنّاس أجمعين في هذا البيت الشعري قائلا:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً **** عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ

فأن يذلّه المجتمع الغربي، الذي يختلف معه في الدّين واللّغة والأعراف والعادات والتقاليد ويحتقره ويدينه بتهمة القتل، وهو الذي لم يمر وقت طويل على منحه اللجوء السياسي، [12] أقلّ قهرا ومعاناة من أن يعيشها وسط أناس أقلّ ما يقال عنهم: إنّهم أهله وعشيرته.

إنّ العيش في إيطاليا كما في غيرها من البلدان الأوربية شبيه بالمصعد الذي يتغير به وضع المهاجر من حال إلى حال، إلاّ أنّ الوضع المتردي نتيجة الضغط على المهاجرين شبيه بـ "قبر ضيّق وبلا نوافذ" [13] فالقبر يرمز إلى الموت وإلى العيش تحت وطأة ضغوطات لا مفرّ منها أما بلا نوافذ فإنها تومئ إلى ذلك الاغتراب غير الشرعي عن طريق الدخول إلى البلاد الأوروبية ليس من أضيق أبوبها فحسب وإنما من نوافذ سدت مخارجها فيما بعد. ما يفضي إلى القول إن كلا من العربي والمسلم يعيش اضطهادا داخليا وخارجيا. ولكن هل هو ملزم بأن يتعايش معه ويتشرّبه إلى حد التجشؤ والانتشاء؟

وكثيرة هي أيضا الرّوايات التي درست عمق المجتمعات ـ التي عانت وما تزال تعاني معيشة سوداء قاتمة ومريرة، وظلت لوقت طويل تهدّد الصغير قبل الكبير، وما يزال طعمها علقما لمن تخلّص منها ولو بشكل جزئي، وتقض مضجع الكثيرات ثم الكثيرين ـ فعملت على إظهار كل هذا في صور إبداعية متراوحة فكرا وفنا، مستشرفة لمستقبل أقل عنفا، فمثلما عاينت كثير من الرّوايات الجانب المتناقض بين الشرق والغرب، أقبلت روايات أخرى كثيرة على إبراز التصادم الصارخ بين حب الحياة وبين حب الموت أو بالأحرى بين الرغبة في

العيش وبين الهيام بالقتل، فتحوّلت القضية من صعوبة إدراك الذّات إلى صعوبة إدراك الآخر وكانت النتيجة استحالة فهم الآخر في ظلّ غياب فهم الذّات أولا، الأمر الذي يستدعي الحفاظ على أربع مقوّمات أساسية:

- حق الحياة

- إلزامية التواصل والتحاور بعيدا عن المنفعة اللاّعقلانية

- الحرية المشروطة

- استبعاد ربط الإسلام بالعنف والتطرّف

والمطلع على رواية الورم على سبيل المثال لا الحصر سيجد حضورا مكثفا لهذه المثاقفة التي استلهمها هذا الروائي من واقع مجتمعه بتقاليده وعاداته، بتخلّفه وتقدمه؛ حيث تركّزت على إبراز مدى تأزّم وعيّ الذّات إلى تأزّم وعيّ الآخر، بسبب ربط الإرهاب والتطرّف والعنف بالإسلام وأصوليته. والحق الذي لا مغالبة فيه أنّ هذه الرّواية كانت أكثر قدرة على تشييد هذه المثاقفة. لأنّها تروي الوضع الأمني المتأزّم في الجزائر بمختلف القضايا والأبعاد ذات العلاقة بهذا الموضوع فهي تلمع إلى ذلك التمازج الفكري والسلطوي في ظلّ غياب الروح، وقد تجلّى واقعا عمليا وإبداعيا، حمل لواءه شخوص انشطرت إلى شطرين إحداهما تجشّمت عناء حمل فكرة الرّغبة في القتل، وثانيهما تكبّدت عناء حمل فكرة الرّغبة في الحياة، مع أن كلا منهما عاش الاستبداد والطغيان والجور والفساد السياسي... وهي مسألة لم تنحصر حدودها في القطر الجزائري وإنّما امتدت لتشمل كل بلدان المغرب العربي وكل ساكنيه الذين لم يسلموا من ذات الجور والظّلم، ذلك أنها بكل بساطة رواية نابضة بالحياة تسرد تفاصيل عن الموت.

وقد تمكّن الرّوائي عبر هذه الشخوص على تناقضها واختلاف انتماءاتها ومستوياتها الثقافية من استنطاقها واستحضار تاريخها المؤلم بوقائعه وحقائقه، إلى حدّ أنّه يتعسّر على القارئ أن يفصل بين ما هو روائي وبين ما هو تاريخي، المهم في كل هذا أنّه وصّل ما أراده بأمانة وإخلاص، وأبان عن حقائق كانت من المحظورات. والأهمّ أنّه مزج بين التاريخ والرّواية فجعل منها رواية تاريخية الأمر الذي منحها مصداقيتها. خاصة عندما علا صوت الكلاشينكوف والبندقية والعقاب والتدمير والقتل كما السحابة السوداء فأمطرت موتا ودماء ورعبا...

فيخون الصديق الصديق، والقريب القريب بدافع الظّلم والقهر الذي عاشه الكثيرون، فكانت نتيجته مدمّرة أتت على الأخضر واليابس، "اعتقلت في إطار حملة وقائية ذات طابع وطني... أنا بريء ولكنّني قضيت قرابة السنة في السجن. وأي سجن؟ جحيم لا تتمناه لألد أعدائك. وماذا فعلت حتى أعاقب بهذه الطريقة اللاّ إنسانية... قادوني بعنف همجي بمنامتي فقط... ـ هذه حقرة حقيقية ونتائجها مدمّرة لنا جميعا." [14]

كما صرّح كريم بن محمد لصديقه المقرّب جدا محمد يوسفي، ومع أنّه كذلك فقد استدرجه من بيته وقاده إلى يزيد لحرش الذي تركه يتخبّط في بركة من الدّماء مذبوحا في إحدى الشّعاب؛ لأنّه صحفي يعمل لدى دولة الطاغوت كما يحلو ليزيد وجماعته أن يسمّيها، "ودون أن ترتعش يداه، مرّر السكين على الرقبة، انفجر الدم بقوة، ارتعش الجسم في حركات حادّة، متتالية، ارتفع شخير مخنوق، ثم توقّف الجسم المذبوح عن الحركة" [15].

والشيء ذاته حصل مع يزيد لحرش أيضا عندما اغتال ابن عمه المير ببرودة أعصاب عجيبة دون سبب ولم يحاول إخفاء هوّيته. [16] ويزداد الظّلم والفساد، وتظل الحقرة هي سبب كل جور خاصة عندما يدّعي البعض بأنّهم تمرّدوا محاولة منهم لإحقاق الحقّ وإصلاح ما أفسده الآخر كاستئثار الأمراء بكل ما هو جميل وطيب ملبسا ومأكلا "إذ يمكن للقائد أن

يمنح لنفسه ما شاء من الامتيازات وأن يتجبّر ما استطاع من التجبر، فلا ينقص ذلك من ولائهم ولا من طاعتهم العمياء" [17]

بنى ساري روايته على ثمانية عشرة فصلا كل فصل هو تأكيد لما جاء في سابقه ومكمل لما هو آت من فصول بدأها بقرار لا رجعة فيه "حينما قرّر كريم بن محمد الاستجابة لدعوة يزيد لحرش" [18] وأنهاها بقرار محسوم "بدون كلمة، اقتفيت أثر أميري يزيد لحرش، متبوعا بعبد اللطيف، إنّني مسرور جدا بهذه الترقية، إنها البداية. أنا أيضا أرغب في رتبة أمير يقود جماعة من الرجال الأشداء، ينصاعون لأوامري قريبا إن شاء الله" [19].

لكن الذي يلفت نظرنا في العنوان "الورم" أن صاحب الرّواية انتقاه بعناية للدلالة على أنه مرض استشرى في جسم الأمة الواحدة، ولا بد من أن يجتث العضو المريض ويستأصل، حتى يحيا ويكمل مشواره لكن الذي كسر أفق توقعنا أن الورم لم يمس قطعة واحدة من جسم الإنسان وإنما سرى في الدم واللحم والعظم بدليل النهاية القاتلة.

إذا فواد الرمان لا يمثل الجزائر فحسب وإنما كل قطر يبحث عن العدل والحرية والمساواة والحق والمستقبل المشرق في ظل الحاضر الحي والماضي التليد، لقد تجلت المثاقفة من منظور ساري في وجود أزمة وعي في غياب الحوار المتحضر بين الشعوب جميعها، وجاء المبدع والمفكر وكل من يشتغل في إطار الفكر من أجل تفعيل العقل بشكل إيجابي لمعالجة من هم يعانون جنون السلطة والسياسة والفهم غير الصائب للدين والتوجه غير السديد؛ لأن "الأصل في الكلام هو الحوار، والأصل في الحوار هو الاختلاف" [20] لكن لابد أن يكون الاختلاف في الفروع لا في الأصول، وأن لا يعتدي الاختلاف على الآخر ويبخسه حقه على الأقل في الحياة.

إن ساري عندما روى لم يكن يهدف إلى الكشف، ومن ثمة التشهير والفضح فقط، وإنما سال حبره ليمس موطن الداء حتى يعالج أو يطبب، ليبوح بسر هو حبيس كثير

من المتناطحين المتطاحنين وهو أن الخطاب الواحد لن تقوم له قائمة بمعزل عن الخطابات الأخرى.

والرواية تتمتع بفضاء حركي متميز استطاع من خلاله الروائي أن يحقق المثاقفة باستثماره جملة من وسائل التعبير الفني وبأسلوب سهل قريب المأخذ، بل ويسترسل فيه القارئ ويستمتع بالقراءة رغم أنه يروي أحداثا وقعت في العشرية السوداء، وتعيد إلى الذاكرة مشاهد الرعب والفجيعة، وما زاد النص مقروئية وإقبالا هو ذلك التوجه المتسم بمستوى لغوي تميز بتنوع متناسب من حيث المستوى الإفرادي المعجمي والتركيبي والدلالي والسياقي، ما جعل الرواية تتمتع بمقامات كلامية متنوعة لا تخلو من الحوار المباشر والمونولوج والتناص والرؤى بعيدا عما كان متداولا عند كثير من الروائيين سواء تعلق الأمر بالموضوعات أو الأساليب... حيث اتسمت الرواية بالتعدد اللغوي القائم على توظيف اللغة اليومية المتداولة التي تستند إلى لهجة الشعب؛ لأنها جوهر ثقافته وتثقفه بل ومنطلق تحاوره وتواصله.

جاءت القلاع وأسفاه رغم أنها شامخة حصينة إلا أن أنّها متآكلة، لقد استشرى الورم فيها فكان بحق العشرية السوداء بل سنوات الجمر التي عاشتها وستعيشها القلاع، ليس لأن القلاع غير حصينة، ولكن لأن الورم أكثر تأثيرا على النفوس وأشد فتكا بالقلوب مع أنهما قويان مؤثران واقعيان، إلا أنه في حلبة المنافسة لابد من متفوق لينال الميدالية الذهبية أو الفضية ولو في حضور عبد القادر بن صدوق المحامي الذي سيعاني ذات القمع والتقتيل المعنوي ولكن هذه المرة في روايات محمد ساري من خلال إعجاب القراء بهذا الورم الجميل في تماسك بنائه ولغته، وإدراكهم وعي ساري بمضمون روايته وهو يحيكها بخيوط نسجتها شخصيات نفذ الرجل إلى أعماقها، فشعرنا من خلالها أنّه الظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول، والموجع والموجوع، والباكي والشاكي، والقاضي والجلاد، والمنكسر والمتجبر، والمنتصر

والمنهزم، والمتأجج والبارد، والحزين والسعيد... تحرك مشاعره صورا رآها وخبرها فاستفزته، وأخرى لم يأسف عليها بل قتلتها مشاهد لابد أن ينقلها نقلا دقيقا أمينا حتى يوصلها كما هي إنه يجاريها عساها تكشف وتبوح... ببساطة إنه شعور المبدع الذي هو لسان حالنا جميعا، حين غاب عنا الوصف وخانتنا الكلمات ودب فينا الرعب هو تفكير المتعقل عندما لا يفقد توازنه لهول ما لاقى أو رأى أو سمع.. فهل هو المثقف العنيف أم المثقف الجسور؟ عذرا من قال إن ناقل العنف عنيف، إن رؤية منظر موحش مرعب ونقله لا يعني إطلاقا شغف بالوحشية وإعجاب بالبطش.

ولئن حاول التطاحن والتعصب والتطرف تدمير جملة من القيم الثقافية والإنسانية والاجتماعية فإنه بالموازاة خلق جوا خاصا حاول الروائيون المغاربة جمع شتاته وجعل المثاقفة بإيجابيات المجتمعات وسلبياتها أسا ركينا في إعادة بناء الفكر وتفعيله.

إذا فهذه الإشارة السريعة لبعض الروايات المغاربية مكنتنا من محاولة ضبط مفهوم للمثاقفة في المغرب العربي إنها فحوى ثقافي وأنساق رمزية وأنماط فنية ومناهج أدبية وتمثلات ذهنية... وكلها عناصر قابلة للتلقي والانتشار الواسع ليس على مستوى المغرب العربي فحسب بل حتى على مستوى العالم العربي وقد تصل إلى العالمية لأن المصالح مشتركة وكذلك المشاعر.

فالمثاقفة إذن مطلب تاريخي؛ بحيث يشهد التاريخ أن ظهور المثاقفة وانفتاحها يعود في أحد أسبابه إلى انفتاح شعب من الشعوب على نتاجات الحضارات المجاورة وتلاقحه معها. مما يدعم القول بأن مبدأ المثاقفة قانون اجتماعي وتاريخي، يجسد ذلك التفاعل الفكري الذي يظهر في التأثير والتأثر بين الثقافات واللغات، وفي انتقال الأفكار ورحلة الفنون والعلوم من حضارة إلى أخرى [21].

الهوامش

---

[1]- مفيد الشوباشي: رحلة الأدب العربي إلى أوروبا ، دار المعارف ـ مصر 1968 ص11

[2]- محمد ناصر: رمضان حمود ـ حياته و آثاره ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ ط 2 ، 1985 ص ص 261 ـ 262

[3] - مفيد الشوباشي: رحلة الأدب العربي إلى أوروبا ص90

[4]- ينظر محمد مصايف النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ ط 2 1984 ص 82

[5]- للاستزادة ينظر المرجع نفسه ص 80 وما بعدها

[6]- ينظر عبد الملك مرتاض: الثقافة العربية في الجزائر بين التأثير والتأثر ، دار الحداثة بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر ط 1 1982ص 50

[7]- محمد ناصر : رمضان حمود ـ حياته وآثاره ص 236

[8]- محمد محفوظ: الحضور والمثاقفة ـ المثقف العربي و تحديات العولمة ـ المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ـ بيروت ط 1 2000 ص50

[9]- محسن جاسم الموسوي: الرواية العربية ـ النشأة والتحول ـ

* لا ينحصر مدلول الشرق في الرجل العربي والغرب في الرجل الغربي بكل تمظهراتهم الفكرية والعقائدية وإنما في تأثرهم بنسب متفاوتة أو انسلاخهم

* الذئبة تمثل إيطاليا بالنظر إلى تمثال الذئبة وهي ترضع التوأمين رومولو وريمو

[10] ـ عمارة لخوص: كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك؟ منشورات الاختلاف، الجزائر 2003 ص 114

[11] ـ المرجع نفسه ص 31

[12] ـ ينظر المرجع نفسه ص 23

[13] ـ المرجع نفسه ص 103

[14] ـ المرجع نفسه ص 53 ـ 54

[15] ـ محمد ساري: الورم، منشورات الاختلاف، الجزائر ط 1 ، 2002 ص 181

[16] ـ المرجع نفسه ص ص 42 ـ 43

[17] ـ المرجع نفسه ص 21

[18] ـ المرجع نفسه ص 7

[19] ـ المرجع نفسه ص 294

[20] ـ طه عبد الرحمن: الحق العربي في الاختلاق الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1 ، 2002 ص 27

[21] - عمار الطالبي، "جدلية الحوار أوائل هذا القرن"، مجلة الرؤى، العدد16 ، 2002، ص16.